واقـع الحـال

منذ مدّة كان الحديث عن توجّه الشباب الياباني نحـو الثقافـة الأمريكية، كما جرى الحديث عن توجّه شرائح من الشباب الخليجي إلى الثقافة ذاتها، وقد ظهرت مظاهر ذلك جليّاً فيما سمّـي «بثقافـة الشباب» وهو مصطلح يحتاج إلى إمعان نظر وكـلام، ذلـك لأنّ الشباب فئة في المجتمع وهم في حفاظهم علـى هويتـهم مختلفـون، وبالتالي تعتبر نسبة ثقافة الإنسلاخ إليهم من الأخطاء، غير أنّ الشباب من ناحية أخرى هم حقيقة الفئة الأكثر تعرّضاً للانسلاخ والذوبـان الثقافي بالنظر إلى الفئات الأخرى، وآنذاك فالمقصود بالثقافة الغربية أو الأمريكية، هو في الحقيقة مجرّد ظاهرة ممارسـة لا ظـاهرة فكـر أو فلسفة. فالشاب الخليجي الذي يمتلك الهـاتف النقّـال، والسـيارة الفخمة والفيديو، والذي يستعمل الغناء الغربي والألفاظ الإنجليزيـة والموسيقى الصّاخبة و.. و.. هو في الحقيقة عنصر سالب مسـتجيب لمتطلبات غريزته المتطابقة مع المعروض، وبذلك فالتكنولوجيا عنـده طريقة للإشباع الغريزي لا للاغتراب أو الهجرة الثقافية، فالشاب ذاته تجده يقرّ في نفسه بانتمائه لأمّتـه وبإجلالـه لثوابتـها ورموزهـا

ومقدّساتها، وآنذاك فالثقافة بمسمّاها الجوهري لم تُمسّ عنده. إنّما الذي مُسّ هو الواقع المعيشي العملي، وكما يفرّق علماء الشريعة بين العمل والاعتقاد وبين العاصي المستحلّ لمعصيته وبين العاصي غير المستحلّ فإن المفكرين أيضاً وجب أن يفرّقوا بين المتلبّس بالمظهر المادي وبين النّاكر لثقافته وهويته المتقمّص لهوية دخيلة.

ثمّ إنّ الحديث عن ثقافة أمريكية في حدّ ذاته خطأ، ذلك لأن التّعبير الغريزي اللا منضبط لا يعتبر ثقافة فالانحلال الخلقي، وعدم الالتزام بالأديان لا يعتبر ثقافة وكلّ ما في الأمر أنّ إنسان أمريكا، أو إنسان الغرب عموماً كان سبّاقاً في التعرّض لطغيان الماديّة. إنّ الأمر شبيه بالحديث عن الالتزام عند أديب لا يكتب إلا في الجنس والكفر، إنّ هذا لا يعتبر التزاماً لأنّ عنصر المجاهدة منتف هُنا.. والأمر لا يعدو أن يكون اتباعاً للغرائز الترابية..

غير أن المشكلة تكمن في النّقلة الحادثة عند شبابنا في الخليج، وهي نقلة من الأصل الثقافي الذّاتي إلى الفرع الثقافي الذاتي والذي هو في حدّ ذاته الأصل الثقافي اللا ذاتي، وحين نتكلّم عن الأصل الذاتي فإننا نقصد به بالفعل الأصل «الثقافي»، أما حينما نتكلّم عن الفرع الذاتي والذي هو الأصل اللاّ ذاتي فإننا نسمّيه ثقافياً تجاوزاً.

وإذن فنحن أمام نمطين من الثقافة، النمط الأصلي الذاتي المأخوذ

من التّراثية الزمانيّة أبّاً عن جدّ، والفرع المنتقل إليه والذي هو أصل عند الآخرين (الغرب)، وسبق أن قلنا أنّه لا يمثّل ثقافة بقدر ما يمثّل «لا ثقافة»..

إنّ التزام الغربيين، بنمط معيّن من السّلوك هو نتيجة حتميّة لسقوط قوامة الدّين والأخلاق أمام طغيان الماديّة القائمة على «الاستمتاع» الأقصى بالتكنولوجيا دون قيد أو حدّ. ولم يأخذ المجتمع الغربي هذا الأمر عن غيره تقليداً، لذلك كان هو النّموذج المثال المعروض عالمياً للاقتداء السّالب.. أمّا النّموذج الآخر المقتدي فهو «صورة» أو «صدى» المثال النموذجي.. وآنذاك فهو نموذج متأخر زمنيّاً عطّل التوارث السّلوكي التّاريخي الممتد إلى أسلافه، ليقيم مكانه التوارث السلوكي المكاني (التقليد للآخر الغربي).